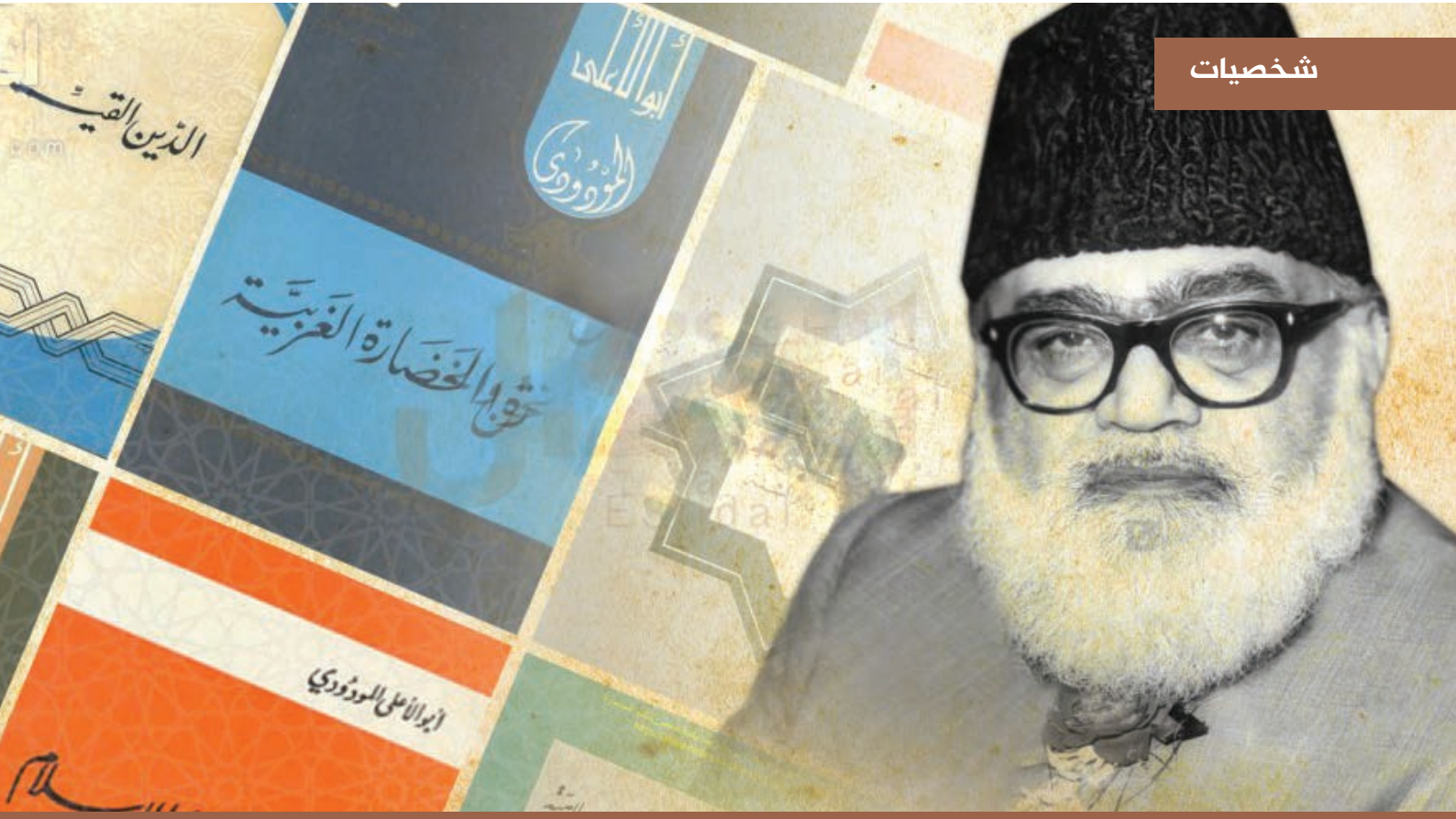


موقف المودودي من التَّصَوف

أ. د. صالح حسين الرقب – غزة العزة

يقسِّمُ أبو الأعلى المودودي التَّصَوف إلى أقسامٍ ثلاثةٍ، وهي:

التصوف الباطل، والتصوف الإسلامي، والتصوف المشبوه.

القسم الأول: التَّصَوف الباطل

التصوف الباطل هو التَّصَوف الذي اختلط بفلسفات الإشراقية والزردشتية، ويشمل رهبانيَّةِ النصارى، ودروشة الهنادكة، وهو التَّصَوفُ الذي دخله كثيرٌ من الأعمال الشركية والمفاسد التي انتقلت إلى المسلمين نتيجة تأثرهم بالفلسفة اليونانية والرومانية والفارسية، ومن مجموع هذه العقائد الجاهلية تكوَّن ما أُطلق عليه اسم «التَّصَوف»، مع أنَّ هذه العقائدَ والأعمالَ الجاهليَّةَ ليس لها أدنى صلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية. وقد فصلَ أتباعُ هذا التَّصَوفِ الشَّريعةِ عن المعرفة، بل إنَّ الشريعة في نظرهم شيء، والمعرفة شيء آخر، وهما يتعارضان. ونتيجةً لذلك أخذَ أتباعُ هذا التَّصوفِ في التحلل من مبادئ الإسلام وتعاليمه، ونفَوْا أنْ تكونَ الشريعة لها سلطانٌ على التَّصَوف الذي سلكوه، ومن ثمَّ شاعت بينهم الخرافاتُ والأكاذيبُ، واستولَت عليهم الفلسفاتُ الجاهليَّةُ الضَّالةُ المُضلَّةُ[1].

بالإضافة إلى ذلك ابتعد كثيرٌ من متصوفةِ هذا القسم عن ممارسةِ الدَّعوةِ والوعظ والإرشاد، وانقطعوا لاستقبال الهباتِ والنُّذور التي يقدمُها لهم جهلة المسلمين، ظنًا منهم أنَّ لهؤلاء المشايخ تأثيرًا ونفوذًا في حياتهم[2].

أقول: إنَّ من أتباع هذا التَّصَوف الجاهلي الباطلِ أصحاب النَزعاتِ المنحلة القائلين بالكشف الباطني والفيض الإلهي[3]، وبوحدة الوجود[4]، واتحاد الخالق مع المخلوق

---

١ - مبادئ الإسلام، المودودي، مؤسسة الرسالة، ص 134، أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته: أسعد جيلاني، المكتبة العلمية - لاهور، ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم، ص ٨٥.

2- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، المودودي، دار الفكر، ترجمة محمد كاظم السباق، محمد عاصم الحداد، ص 151.

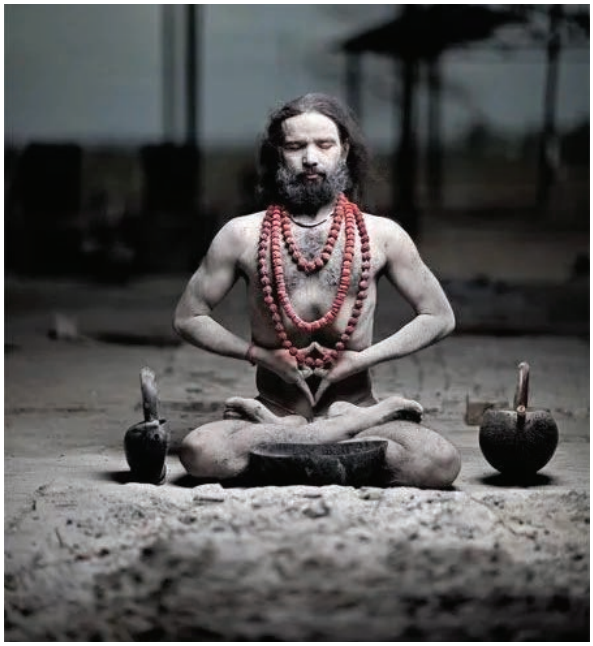
3 - الكشف عند الصوفية: يعني رفع الحجب من أمام قلب الصوفي وبصره ليعلم بعد ذلك كلَّ ما يجري في هذا الكون. انظر التعريفات: الجرجاني باب الفاء مادة الفيض- باب الكاف مادة الكشف.

4 - وحدة الوجود: أي أنَّ الله هو الحق: وليس هناك إلاَّ موجودٌ واحدٌ، وهو الموجود المطلق، أمَّا العالمُ فهو مَظهرٌ من مظاهر الذَّات الإلهيَّة، وليس له وجودٌ في ذاته، لأنَّه صادرٌ عن الله بالتَّجلي. انظر المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا، دار الكتاب

وحلوله في العالم[5]، ومن رواده الحلاج، الذي قُتل بفتوى من الفقهاء، وابن الفارض وابن عربي وابن سبعين وغيرهم ممَّن أخذَ بأقوالِهم وسارَ على منوالهم.

موقف المودودي من التصوف الباطل:

يرى المودودي ضرورةَ القضاءِ على مثل هذا التصوف، ويعتبره من العقبات التي تقف حجرَ عثرة في طريق المدِّ الإسلامي. يقول المودودي: «ذلك التَّصَوف (أي الباطل) الذي لا يعدُّ الإنسانَ للقيام بواجباته التي تؤهله ليكونَ خليفةَ الله في أرضه، بل هو تصوفٌ يعدُّ الانسانَ للقيامِ بأحكامٍ وواجباتٍ أخرى مغايرة، هذا التَّصَوف لا أعارضُه فحَسَب، بل أَرَى ضرورةَ القضاءِ عليه لإقامةِ دين الله، فشأنُه في هذا شأنُ الجاهليَّة الحديثة التي يجبُ أنْ نمحوَها أيضًا»[6].



القسم الثاني: التصوف الإسلامي

هو التصوف الذي لا يختلف في جوهره عن منزلة الإحسان في شيء[7]، حيث يهتم بباطن الإنسان وكيفية إصلاحه، ومبلغه من العلم والعقل، وعن طريقه يعرف المسلم مقدار إخلاصه لله وخشيته منه، واليقين بأنَّ الله تعالى يراقبه في السِّرِ والعلن، وعند ذلك يتوجه المسلم بعبادته لله تعالى وكأنَّه يراه.

وهذا التَّصَوفُ مرتبطٌ بالشريعة الإسلامية غيرُ منفصلٍ عنها بحال من الأحوال، فهو يعني التمسك بآدابها والالتزام بأحكامها مع صفاء النية وطهارة القلب[8]. والتَّصَوف بهذا المعنى يستمدُّ أصولَه ومبادئَه من القرآن الكريم والسُّنة النَّبوية المطهرة، وقد نشأ هذا التَّصَوف في الصَّدرِ الأول من الإسلام بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، حيث بدأت تظهرُ علامات التَّدهور في الأخلاق عند المسلمين، ووجدت جماعةُ سُمِّيت بالصوفية الذين أقاموا زواياهم من أجل انتشال النَّاسِ من البيئة الفاسدة، ويرى المودودي أنَّ هذه الزوايا كانت شبيهة بالهيئة النَّظيفة التي أعدَّها رسولُ الله ﷺ لتربية وإعدادِ أصحابه الكرام رضي الله عنهم[9]. ولم تكن لدى أصحابِ هذا النَّوعِ من التَّصوف فلسفةٌ معينَّةٌ، كما لم تكن لهم طريقةٌ معينةٌ، بل كانت أفكارهم وأعمالهم وفق النصوص الشرعية، وكان هدفهم الإخلاص لله تعالى في الطاعة والعبودية. ويمثِّلُ هذا النَّوعَ من التَّصوف الإسلامي الخالص: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، ومعروف الكرخي، وغيرهم ممن سلك طريقتهم والتزم نهجهم[10].

أقول: إنَّ التَّصَوفَ الإسلاميَّ الذي ذكره المودودي هو الإسلامُ بعينه، ومن هنا فلا يجوزُ أنْ نُطلقَ لفظَ التَّصَوف على إقامةِ الشعائر التَّعبديَّة، والزهدِ في الدنيا، والانقطاعِ للعبادة، لأنَّ هذا الاصطلاحَ غريبٌ عن جيلِ المسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين، الذين هم أشرفُ النَّاسِ عبادةً، وأكثرُهم طاعةً لله تعالى، ولم يستطع أحدٌ أن يُطلِقَ عليهم لفظ المتصوفة مع كونهم أشد الناس تمسكًا بالكتاب والسُنَّةِ. وإن التَّصوف على الإطلاق ليس إسلامي النشأة، وإنما وفد على البيئة الإسلامية مع ما وفد من عادات وتقاليد الأجناس الأخرى بعدما امتزجت واختلطت عقب الفتح الإسلامي.

وعلى هذا الرأي بعض الملاحظات، فقد ينطبق هذا الرأي على ذلك النوع من التَّصوف، الذي قام على أساس من الغلو والانحراف الذي جاء به أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد، مع تظاهرهم بالانتساب إلى الإسلام وتقديسهم لنبي الإسلام محمد ﷺ، ولعلَّ سبب هذا القول إنَّما يعود إلى الواقع الذي اشتمل عليه مفهوم التَّصوف. وقد يبدو للناظر أنه يوجد لكل من القولين السابقين ما يبررهما

اللبناني، دار الكتاب المصري، 569/2.

5- الاتحاد: أي شهود الوجود الواحد المطلق الذي الكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شي موجودا به معد وما بنفسه لا من حيث إن له وجودا خاصا انحل به فإنَّه محال. انظر المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا، 35/1.

٦- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص ٢٥٨.

٧ - موجز تاريخ تجديد الدين، ص 126.

٨- مبادئ الإسلام، ص 135، موجز تاريخ تجديد الدين، ص 150.

٩- نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، ص 109 ، 331.

١٠ - أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص ٢٨٩.

في العقائد الصوفية، وأهل هذا القول يرجعون نشأة التَّصوف إلى أنه فارسي، أو هندي أو يوناني، أو مسيحي، أو أنه مزيج من هذا كله، وعلى رأس هذا الفريق كثير من المستشرقين ومن غيرهم أيضًا.

والمطلع على الحركة الصوفية من أول نشأتها إلى حين ظهورها العلني على ذلك النحو يجد أن أساطين الفكر الصوفي -جميعهم بلا استثناء- في القرنين الثالث والرابع الهجريين كانوا من الفرس، ولم يكن فيهم عربي قط، وعند مقابلة الدين الصوفي ستجد أن التَّصوف هو الوجه الآخر للتشيع، وأن أهداف التَّصوف والتشيع كانت واحدة تقريبًا، في السياسة والدين، والمهم هنا هو التذكير بأن التَّصوف بلغ غايته وذروته من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث، حيث استطاع الحسين بن منصور الحلاج أن يظهر معتقده على الملأ، ولذلك أفتى علماء العصر بكفره وقتله، فقتل سنة ٣٠٩هـ، وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخرون فلم يظهروا ما أظهر الحلاج.

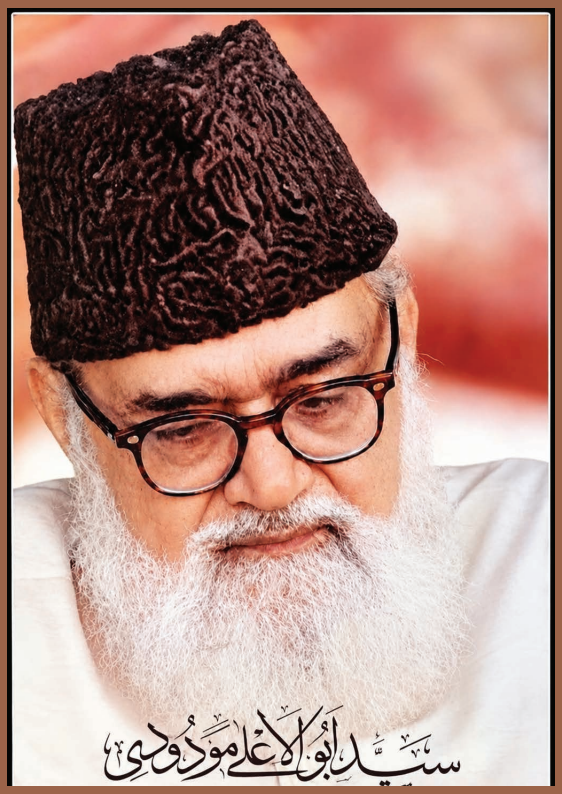
يقول ابن تيمية: «**إنَّ لفظَ الصُّوفيَّةِ لم يكنْ مشهورًا في القرون الثلاثة الأولى، وإنَّما اشتهر التَّكلُم به بعد ذلك**»[١١].

موقف المودودي منه: يرى ضرورة العمل على إحياء هذا التَّصَوف، يقول عنه: «**هذا التَّصَوف، لا أوافقه فقط بل أتمنى وأحبُّ أنْ يَحيَا مرةً ثانيةً، وينتشر**»[١٢].

القسم الثالث: التصوف المشبوه

وهو الذي يكونُ خليطًا من التَّصوفَ الجاهلي والتصوف الإسلامي، ورجالُ هذا التَّصَوفِ أهلُ علمٍ وأصحابُ نوايا حسنة، ولكنَّهم لم يسلموا من التأثيرات الفكرية التي كانت سائدةً في عصرهم، حيثُ علِقَت في نظرياتهم بعضُ أدرانِ ومفاسدِ التَّصَوف الجاهلي، وقد بذلَ هؤلاء جهودَهم لتنقيَةِ طرقِهم ممَّا علِقَ بها من المفاسد، كما حاولوا فهمَ التَّصَوف الإسلامي والعمل به، ولكنَّ مجهوداتِهم لم تحقق أغراضَها، وحيثُ ما زالت في أفكارهم وأعمالهم بعض الأشياء التي تخالفُ القرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ المطهرَّةَ، ولذلك قاموا بتأويلها ليوهموا النَّاسَ بأنَّها لا تعارضُ النُّصوصَ الشرعيَّةَ، وليسلَموا من الطُّعونِ والانتقاداتِ الموجَّهةِ إليهم.

ولقد أدَّى هذا التَّصَوفُ المشبوهُ إلى نتائجَ غيرِ مرضيَّة، حيث خرَّج أُناسًا لا يفهمون الإسلام فهمًا صحيحًا، وليست لديهم القدرةُ، بل وليس في تفكيرهم العمل وبذل الجهد لإقامةِ دينِ الله تعالى في الأرض.



أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ - ١٩٧٩) اعلامي ومفكر ومؤرخ إسلامي نشأ في عائلة متدينة في الهند ثم بعد انفصال باكستان أصبح من كبار رجالاتها. له مؤلفات كثيرة بالأردية تناولت مواضيع عديدة مثل تفسير القرآن والحديث والقانون والفلسفة والتاريخ، وترجمت لاحقاً إلى لغات عديدة.

بدأ المودودي العمل في الصحافة عام ١٩١٨، وأصدر مجلة ترجمان القرآن عام ١٩٣٢، ولا تزال قائمة. أسس الجماعة الإسلامية في الهند عام ١٩٤١ وقادها ثلاثين عاما ثم اعتزل الإمارة لأسباب صحية عام ١٩٧٢ وتفرغ للكتابة والتأليف. كان من أهم الداعين لإنشاء دولة باكستان.

كان عضواً في مجلس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة بعد تأسيسها، كما كان عضواً مؤسساً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. وفي عام ١٣٩٩هـ مُنح جائزة الملك فيصل تقديرًا لجهوده وتضحياته في خدمة الإسلام.

كان للمودودي تأثير كبير في العالم الإسلامي، ومع ذلك كان هناك جوانب خالفه فيها أمثاله من الشخصيات الإسلامية البارزة كنقد الشيخ أبو الحسن الندوي له في كتابه "التفسير السياسي للإسلام" الصادر سنة ١٩٧٨.

١١- رسالة الصوفية والفقراء من مجموع الفتاوى، ٥/١١.

١٢- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص 280.

موقف المودودي من التصوف المشبوه:

يقول المودودي عن هذا التَّصَوف: «لا أوافقُ عليه تمامًا، ولا أعارضُه تمامًا، بل إنَّني أقولُ لمن يحمل مشعلَه: عليكم أنْ تُفرِّقوا بين احترامك للشخصيات الكبيرة من تحليلِ هذا التَّصَوف ونقده في ضوء القرآن والسُّنَّة، وعليكم أنْ تحاولوا تصحيحَ مساره ومداره. وإذا كان هناك بعضُ نقاط الاختلاف بينكم وبين أحدٍ، فعليكم مناقشة هذا الاختلاف في ضوء الكتاب والسنة، وألا تنكروا على أحد حقه في مخالفة هذا النوع من التصوف أو نقده، وألا تجعلوا هذا الرجل هدفًا للقدح واللوم»[١٣].

ومِمَّا ينكره المودودي على هذا النَّوعِ من التَّصَوفِ الأمور الآتية:

١- الاشتغال بالأذكار والأوراد دون غيرها: ينكر المودودي على أصحاب التَّصَوف المشبوه انشغالهم بالأوراد والأذكار والرياضات الصوفية الخاصة بهم، وتهاونهم في العمل على إزالة الفساد المنتشر في البلاد، وهمْ في نظرهِ بعيدون عن مرتبة الإحسان.

والمودودي لا يقصدُ التَّهوينَ من شأنَ ما نصَّت عليه الآياتُ القرآنيَّةُ والأحاديثُ النبويَّةُ من وجوبِ تعظيمِ الله تعالى ومحبَّةِ رسولِه ﷺ، أو ذكرِ الأشعار والمدائح في ذلك، كما لا يقصدُ التَّقليلَ من شأنِ الآداب والتعاليم الإسلامية، ولكنَّه يرى أنَّ الاقتصارَ على هذا الجانبِ فقط وتركِ ما عدَاهُ لا يكفي المرءَ لِيصلَ إلى مرتبةِ الإحسانِ التي أرادَها الرسولُ ﷺ، والمودودي نفسُه يؤكِّدُ على وجوبِ تلاوةِ الأورادِ والأذكارِ والأدعيةِ المأثورةِ إذا ما أرادَ الإنسانُ المسلمُ أن يُزكِّيَ نفسَه بشرطِ أنْ لا يقتصرَ عليها دونَ غيرها.

٢ – التَّربيةُ والتَّزكيةُ:

إنَّ مبادئَ التَّزكية لدى الصُّوفيَّة تختلفُ عن التزكيَّةِ التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة الشَّريفة، والصُّوفيون أنفسُهم لا ينكرون أنَّهم ابتدعوا أشياءَ في هذا الجانب ما أنزل الله تعالى بها من سلطان. وإذا كان الأمرُ كذلك فإنَّ غايةَ التَّزكية عند الصُّوفيةِ تختلفُ عن الغاية النبيلة التي قصدها النَّبيُّ ﷺ من تربية أصحابه، وهي إقامة النظام الإسلامي في الحياة. يقول المودودي: «التَّزكيةُ التي جاءت في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة هي وحدها التي تساعدنا في سبيل إقامة الدِّين كمنهاجٍ في الحياة، أما التَّزكيةُ الصُّوفية فلن تحقق لنا هذه المساعدة»[١٤].

٣ - العلاقة بين الشيخ والمريد:

إنَّ ممَّا يروَّجُ اليوم بين جمهور الصوفيَّةِ أنَّ الشيخ المرشد يستغبي الأفراد بشطحاته وخداعه، وهو يخدِّرُ أفكارَهم ويضحكُ على عقولِهم، حينما يقولُ لهم: إنِّي أملكُ لكمُ الجنَّة... فيقدِّمونَ له النُّذورَ والقرابينَ طمعًا ورغبةً. ويبلغُ من سيطرةِ الشيخِ على عقول المريدين وقلوبهم أنَّه يكادُ أنْ يتَّخِذَه المريدون ربًا لهم من دون الله تعالى[١٥]. وعن هؤلاء المشايخ والمريدين يقول المودودي: «إنَّني أعتبرُ هؤلاءِ الشيوخ من أعتى المجرمين وأشدِّهم إجرامًا، وأعتبرُ تابعيهم من الضالين المتعمقين في الضلال». وعن موقفه من هذه المسألة يقول: «لو كان الأمرُ بيدي، ولو أملكُ القوَّة لأوقفتُ هذا الضلال بالجبرِ والإلزامِ»[١٦].

٤ - الكشف والإلهام واستعمال الرموز والإشارات والألبسة الخاصة:

إن ادّعاء المرشد الصُوفي القدرة على الكشف والنطق بالإلهام، وممارسته لهذا الادِّعاء يولد عند المريد نوعًا من البلادة الحسية والجمود العقلي، بالتالي تزداد فيهم العبودية الذهنية. وإنَّ استعمال الرموز والإشارات الصَّوفية التي تتبع حالة الكشف والنطق بالإلهام يستفز في الأنفس القسوة المتخيلة التي تحلق بهم في عالم آخر (**عالم الطلاسم والأعاجيب**) الذي قلّما يهبطون منه إلى عالَم الحقيقة والواقع[١٧].

ومن العادات والتقاليد التي قد دخلت التصوف ما يتعلق بلباسٍ وزي معينٍ خاصٍ بهم دونَ غيرِهم من المسلمين، حتّى أصبحَ من صميمِ المعتقداتِ التي يدينون بها.

---

١٣ - المصدر السابق، ص 289.

١٤ - جريدة الدعوة التي تصدرها الجماعة الإسلامية في الهند، عدد صفر 1401هـ-فبراير 1981م، من مقال بعنوان: من معالم الطريق - تربية الداعي في سبيل إقامة دين الله، ص ٥.

١٥- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، ص ٣٨٥، وموجز تاريخ تجديد الدين، ص ١٢٨.

١٦ - نفس المصدر السابق، ص 386.

١٧ - بتصرف بسيط عن كتاب موجز تاريخ تجديد الدين، ص ١٢٨.